التراث الإنسانى
فى الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور بديع العابد
معمارى استشارى (عمان - الأردن)

مقدمة :

الإنجازات الثقافية الإنسانية (التراث الإنسانى) ،قديم قدم الإنسان نفسه، وهى تؤرخ لتطور الفكر الإنسانى، وتبين مدى تقدم الحضارات ورقيها. ولقد عنيت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) منذ نشأتها بالشأن الثقافى، وصنفت الإنجازات الثقافية إلى آثار وتراث. فالآثار هى الإنجازات المادية (التراث المادى)، أى المبانى التى يزيد عمرها عن ١٥٠-٢٥٠ عاماً، طبقاً لتصنيف كل دولة من الدول الأعضاء فى اليونسكو. ثم صنفت التراث إلى ثلاثة أقسام: تراث مادى، وتراث لا مادى، وتراث إنسانى، ويجمع الأخير بين التراث المادى واللامادى. ثم صنفت التراث زمنيا بالتراث القديم والتراث الحديث !؟ وحضت على الحفاظ عليها جميعاً. فالآثار يتوجب الحفاظ عليها بتحنيطها وعدم استعمالها. والتراث يتوجب الحفاظ عليه بترميمه واستعماله أو إعادة تأهيله، وسنت المواثيق الخاصة بذلك.

لكن اليونسكو أغفلت خصوصية الحضارة العربية الإسلامية لسببين: أولهما، أن هذا التصنيف لا ينطبق على إنجازات الحضارة العربية الإسلامية المادية، فليس ثمة آثار وتراث فى إنجازاتها. لأنها حضارة حية قائمة، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، لا يجرى عليها التقادم الزمنى. فجميع إنجازاتها، والمادية (المعمارية) منها

بصفة خاصة، تستعمل بشكل دائم، والمباني الدينية، كالمساجد، أظهر مثالٍ على استدامة الاستعمال. فلو سلمنا، جدلاً، بتصنيف اليونسكو لتوجب تحنيط المسجد الحرام، والمسجد النبوى، والمسجد الأقصى، والمسجد الأموى فى دمشق، والأزهر فى القاهرة وغيرها الكثير.

والأهم من ذلك أن بنية الحضارة الإسلامية وتكوينها يقتضى حضورها الدائم. ففلسفة تاريخها قائمة على: التواصل التاريخى، والدروس والعبر، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة. فالأول، التواصل التاريخى، يتطلب الحضور الدائم لإنجازاتها، أى الاستعمال الدائم لإنجازاتها المادية (المعمارية). وأما الثانى والثالث، فينبهان إلى ما آلت إليه الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية من انهيار وفناء، للاعتبار بها والاتعاظ بما حصل لها، وهما مكملان للأول. وأما الرابع، التنوع داخل الوحدة، فالمقصود به الحفاظ على إسهامات وإنجازات الشعوب الإسلامية المادية، التى مورست تحت مظلة الإسلام المتنوعة بيئياً وثقافياً، والموحدة فكرياً.

أضف إلى ذلك أن مؤسسة الوقف، الأقوى فاعلية فى بنية الحضارة الإسلامية، تنص صراحة وبوضوح تام، وبمصطلحات وعبارات لا تقبل التأويل أو اللبس، على الحفاظ على مفردات النسيج المعمارى، أى المادى، واستمرار أدائها لوظيفتها، وبصفة خاصة فى أحكام الشارع (الشريعة) وشروط الواقف، اللذان لهما نفس قوة التطبيق، طبقاً للقاعدة الشرعية: "إن شرط الواقف كنص الشارع"، ومن هذه الأحكام والشروط:

"وقف وحبس وتصدق وحرم وسبل وأبد... إلى أن يرث الله الأرض وما عليها... بما فيه بقاء عينها ودوام منفعتها... لا ينسخ حكمه ولا يندرس رسمه... لا يندرس رسمها... ولا يغير رسمها... قائمة على أصولها... لا يجوز تغيير صفة الوقف... الأولوية فى صرف ريع الوقف للحفاظ على الأعيان الموقوفة...".

مما سبق يتضح أن بنية الحضارة الإسلامية الممثلة بوحدة فكرها وبفلسفة تاريخها، وبمؤسسة الوقف تفرض، بل تحتم، تواصلاً تاريخياً يقضي بالاستعمال الأبدى والدائم لإنجازاتها المادية واللامادية. فهي إذن ليست آثاراً، مهما تقادم عهدها، لينطبق عليها تصنيف اليونسكو، وليست تراثاً لأنها تنتمي إلى حضارة حية كما أسلفت.

وهذا يقودنا إلى السبب الثاني، وهو أن اليونسكو لم توظف إسهام الحضارة العربية الإسلامية في الحفاظ على إنجازاتها الثقافية وإنجازات غيرها من الحضارات، ولم تستثمر دورها الريادي في هذا المجال، وهو الأقدم زمنياً والأعمق معرفياً من كل مواثيق الحفاظ الدولية، كما بينت في كتابي الموسوم بـ: الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية [1]، وكما سأبين لاحقاً في هذه الدراسة.

وربما يعود إغفال اليونسكو لخصوصية الحضارة الإسلامية إلى عدم معرفة القائمين عليها بهذه الخصوصية، وبدورها الريادي في مجال الحفاظ، أو إلى تقصير، وربما جهل، الممثلون العرب والمسلمين في اليونسكو بهذه الخصوصية والدور الريادي. وذلك لأن فكرنا مغيب، ووعينا مستلب، وإرادتنا مرتهنة للغرب ونزواته، ولأننا استمرئنا استيراد المعرفة واجترارها وعدم إنتاجها، ولأن مؤسساتنا الثقافية المعنية عاجزة، والأغلب أنها عازفة، عن فرض حضور إسهام الحضارة العربية الإسلامية في المنظمات والمؤسسات الدولية.

استناداً إلى ما سبق فإنه يتوجب، على جميع الدول العربية والإسلامية، التنويه صراحة على ديمومة حضور واستعمال الإنجازات المادية للحضارة الإسلامية، وإعادة النظر في تصنيفنا لإنجازاتنا المادية (المعمارية) إلى آثار وتراث. كما يتوجب التحفظ

١ - انظر: العابد، بديع، (دكتور)، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، الحفاظ المعماري في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، المغرب.

على ميثاق اليونسكو، وتسجيل هذا التحفظ فى منظمة اليونسكو، حتى لا نطالب بتحنيط إنجازاتنا المعمارية التى أشرت إليها سابقاً، كالتالى:

لما كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة قائمة، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، فإن جميع إنجازاتها المادية (المعمارية) هى مبانٍ صالحة للاستعمال أو إعادة التأهيل، وأن ما جاء فى ميثاق اليونسكو والمواثيق الدولية والهيئات الغربية من تصنيف زمنى للإنجازات المادية: كآثار وتراث، تصنيف لا يعنى الحضارة العربية الإسلامية، ولا يرتب عليها أى التزام أدبى أو معنوى أو قانونى.

الأهداف والمنهجية:

تهدف هذه الدراسة إلى تعريف التراث الإنسانى، وتوضيح بنيته فى الحضارة العربية الإسلامية. كما تهدف إلى بيان دورها الريادى فى حفظ إنجازاتها المادية واللامادية، وحفظ تراث غيرها من الحضارات التى سبقتها.

ولتحقيق ذلك ستعرض الدراسة لتعريف التراث الإنسانى، ولمصادر الجمع والتدوين والتوثيق، والتنويه بالمنهجية العلمية والعقلانية، التى وظفت للحفاظ على إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، وتراث الحضارات السابقة والمعاصرة لها. كما وردت فى جمع القرآن الكريم والحديث الشريف، وتدوين الشعر الجاهلى. وترجمة كتب العلوم اليونانية والسريانية والهندية. وستبين دور الإنجازات الإسلامية والتراث اليونانى والسريانى والهندى فى التنمية الثقافية والعلمية.

فالدراسة إذن للتراث تضمن مستويين: مستوى خاص بالإنجازات الإسلامية، ومستوى خاص بالتراث الغير إسلامى، وسأبدأ الدراسة بتعريف التراث الإنسانى، ثم أعرض للإنجازات الإسلامية، ثم للتراث غير الإسلامى.

التراث الإنسانى :

كما بينت فى المقدمة فإن الحضارة الإسلامية كحضارة : قائمة، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، لا تملك تراثاً بل إنجازات. فإنجازها الإنسانى هو مجمل إنتاجها الثقافى المادى واللامادى. وهو جزءٌ لا يتجزأ من إنتاج البشرية، أو ما اصطلح على تسميته بالتراث الإنسانى. وهو : إنتاج البشرية من التراث الثقافى المادى واللامادى ويشمل : المعالم المعمارية، المنحوتات والرسومات والتصوير، الكتابات والخطوط والنقوش، الكهوف والمغر، المواقع الطبيعية أو التى صنعها الإنسان أو من الاثنين معاً، المواقع الآثارية، العناصر الإنشائية كالجسور والأنفاق، الصناعات الحرفية والمنتجات اليدوية، الآداب والفنون، والقصص الشعبى، والغناء والزجل، والنوادر، والأساطير، وبالجملة يعتبر تراثاً إنسانياً، كل ما له قيمة فنية، أو تقانية، أو تاريخية.

هنا يقتضى التنويه أن الفرق بين الإنجازات والتراث فى رأيى، هو أن الأول، الإنجازات، هى المنتجات الثقافية الفاعلة أو القابلة للتفعيل والتوظيف، أو المحفوظة والموثقة ضمن الحضارة التى أنتجتها حتى لو لم تعد فاعلة أو قابلة للتفعيل فى الحياة اليومية. فحفظها وتوثيقها يعطيانها صفة الإنجازات حتى لو تعرض بعضها للتلف والخراب. وهذا هو حال الحضارة الإسلامية فجميع إنتاجها الثقافى يعتبر إنجازات، ليس فقط لأن إنتاجها الثقافى مرتبط بفلسفة تاريخها وببنيتها بل لأنها محفوظة وموثقة أيضاً. ولا يضاهى الحضارة الإسلامية فى هذا الأمر سوى الحضارة الحديثة والمعاصرة؛ لأن إنتاجها الثقافى سواءً كان فاعلاً أو غير فاعل يعتبر إنجازاً. فالإنتاج الفاعل سواءً كان مادياً أو لا مادى موظف ويتمتع بسلطة الحضور فهو إنجازات، أما غير الفاعل فهو موثق ومحفوظ متحفياً بسبب التطور الثقافى، أوالتقانى أوالفنى، أو الوظيفى، الذى طرأ عليه. فالتطور الذى نعايشه فى حياتنا اليومية يلغى أجيالا من الإنجازات ليحل

محلها إنجازات جديدة كما يحصل، على سبيل المثال، فى السيارات، الأدوات المنزلية، وأجهزة التقانة الرقمية.

وهنا يتوجب الملاحظة أن المقتنيات المتحفية نوعين: الأول، قديم، من إنتاج الحضارات المنقرضة، وغير قابل للتوظيف أو الاستعمال، أو يمكن توظيفه واستعماله لكن قيمته الفنية أو التقانية أو التاريخية أعلى من قيمته العملية، مما يستوجب الحفاظ عليه متحفياً. والثانى، منتج (إنجاز) حديث أو معاصر تم تطويره فاقتضى الحفاظ على صورته، أو صوره، الأولى متحفياً.

أما الثانى، التراث، فهو المنتج الثقافى الذى أهمل توثيقه فى الحضارة المنتجة له، أو تم تلفه بسبب انهيارها واندثارها، وتم الاستدلال والتعرف عليه لاحقاً من قبل حضارة أخرى، سواءً عنيت بترميمه وتوثيقه وتوظيفه أم لا. فالتراث هو نتاج الحضارات الميتة، أو التى لم تعد فاعلة. والتراث هو ما يتعذر توظيفه واستعماله، أو ما أصبح صورة قديمة لمنتج جديد، فاكتسب قيمة فنية أو تقانية أو تاريخية أعلى وأثمن من قيمته العملية فتوجب الحفاظ عليه توثيقاً واقتناءً إن أمكن.

وعليه فإن ما يمكن إطلاق لفظ تراث عليه، هو ما تعذر توظيفه واستعماله فى الحياة المعاصرة، أو المنتج الذى تم تطويره فَعَلَتْ وفَاقَتْ قيمته الفنية أو التقانية أو التاريخية قيمته العملية. وضمن هذا التعريف يمكن تسمية بعض منتجات الحضارة الإسلامية من الحرف والمصنوعات اليدوية، التى لم تعد فاعلة، تراثاً. لكن لا يمكن تسمية باقى إنتاجها الثقافى، الأدبى والفكرى والفلسفى والمادى، تراثاً بل إنجازات، لأنها فاعلة.

ضمن هذا السياق سأعرض لدور الحضارة الإسلامية فى حفظ وحماية إنجازاتها الثقافية وتراث الحضارات التى سبقتها وعاصرتها وإيصاله إلينا، والذى تم على

مستويين، هما: المستوى الإسلامي والمستوى غير الإسلامي، فيما يلي من عرض وتحليل.

دور الحضارة الإسلامية في حفظ إنجازاتها وتراث غيرها:

التراث الإنساني هو مجمل نتاج ثقافات العالم، والحفاظ عليه هو أرقى مستويات الحفاظ قاطبة، وهو سمة من سمات الحضارات الراقية. وكان للحضارة الإسلامية السبق في هذا المجال، مع أنها ابتليت أكثر من مرة بتدمير إنجازاتها الثقافية. كان أولها سقوط بغداد على يد التتار (المغول) سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)، الذين دمروا الإنجازات الثقافية العربية الإسلامية في بغداد، وأفرغوا مكتباتها من الكتب وألقوها في نهر دجلة. وكان آخرها سقوط بغداد أيضاً سنة (٢٠٠٣ م) على يد الأمريكان (التتار الجدد)، الذين استباحوا مكتباتها، ومتاحفها، ومواقعها الآثارية، ونهبوا ما طالت أيديهم من كنوز العراق الثقافية والفنية منها بصفة خاصة. وكان بين هذين السقوطين السلب والنهب والدمار الذي أحدثه الصليبيون في بلاد الشام ومصر في الفترة من سنة (٤٨٨ - ٦٩٠هـ/ ١٠٩٥ - ١٢٩١م)، والتتار بعدهم. وكذلك الدمار الذي أحدثه الإسبان في غرناطة عقب سقوط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس سنة (٨٩٨هـ-١٤٩٢م). ولا ننسى النهب والسلب وتدمير النسيج المعماري لمدينة القاهرة الذي قام به نابليون والجيش الفرنسي عندما احتل مصر سنة (١٢١٣-١٢١٦هـ/١٧٩٨-١٨٠١م)، وكذلك محاولاتهم، أي الفرنسيين، القضاء على الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر. وأهم من هذا كله سلب اليهود لفلسطين أرضاً وثقافةً، ومحاولاتهم هدم أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، منذ سنة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م/ الآن)، وطمس كل إنجازاتنا المادية واللامادية بها. ثم نهب الأوروبيون: لإنجازاتنا العلمية، والثقافية، والمعمارية، وسرقتهم لمخطوطاتنا، وتحفنا، وآثارنا العربية والسامية، التي ورثناها عن أجدادنا واحتفاظهم بها في مكتباتهم

ومتاحفهم. وأخيراً استلابهم لوعينا، وتغييبهم لإنتاجنا العلمى والفكرى والثقافى، ومحاولتهم طمس شخصيتنا الحضارية.

والثقافة، كما هو معروف عصب التراث الإنسانى، وهى: "مجمل السمات المادية والفكرية والعاطفية التى تميز مجتمعاً عن غيره وتشمل: الفنون، والآداب، وطرائق الحياة، والحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم، والتقاليد، والمعتقدات"[١]. وهذه السمات تمارس بمستويات مختلفة من الوعى، والحفاظ عليها يكون نتاج الوعى بها، وكلما علت واتسعت دائرة الوعى كلما علا واتسع مفهوم الحفاظ عليها، أى مفهوم الحفاظ الثقافى. والحضارة الإسلامية كانت وما زالت من أكثر الحضارات وعياً بالمنتج الثقافى، سواءً كان إسلامياً أو غير إسلامى. فعنيت بالمحافظة على منتجها الثقافى، وعلى منتج غيرها. فكان لها الريادة فى إرساء مفهوم الحفاظ، كما يتضح فى قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[٢]. وكذلك فى قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۝٩ ﴾[٣]. فالآية الأولى خاصة بالحفاظ على المنتج الثقافى الإسلامى، والآية الثانية خاصة بالحفاظ على المنتج الثقافى غير الإسلامى. فبنية الحفاظ الثقافى فى الحضارة الإسلامية تقوم على مستويين: مستوى خاص بها، ومستوى خاص بالحضارات الأخرى، وسأعرض لهما تباعاً فيما يلى من دراسة وتحليل.

المستوى الإسلامى:

نشطت الحضارة الإسلامية فى تطبيق مفهوم الحفاظ على منتجاتها الثقافية

١ - انظر: العابد، بديع، ثقافة المعمارى، مجلة اتحاد الجامعات العربية للبحوث والدراسات الهندسية، مجلد ٧، عدد ١، ص: ٣.

٢ - انظر: القرآن الكريم، سورة الحجر.

٣ - انظر: القرآن الكريم، سورة الروم.

اللامادية والمادية، فطبقته قولاً وعملاً. ففي الجزء اللامادي، تم جمع القرآن الكريم [١] والحديث الشريف [٢]، وتدوين الشعر الجاهلي [٣] وتوثيق كل ما أنتجته من: أدب، وفن، وموسيقى، وزجل، وغناء [٤]، وعلوم، وفكر، وفلسفة [٥]، وعمارة. واللافت للنظر أن الحضارة الإسلامية من أغنى الحضارات [٦] إنتاجاً للأدب المعماري، الذي شمل جميع مجالات العمارة. وأما عملاً فقد طبقه الخليفة أبو بكر الصديق (١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م) في وصيته لأسامة بن زيد بن حارثة، بعد أن أَمَّرَهُ على قيادة جيش المسلمين، في غزو بلاد قضاعة سنة (١١هـ - ٦٣٢م) التي أرست أسس القانون

١ - انظر: الزركشي، بدر الدين، المتوفى (٧٩٤هـ-١٣٩١م)، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، بيروت، لبنان، ج ١ / ٢٩٥ - ٥٣١.

- السيوطي، جلال الدين، المتوفى (٩١١هـ - ١٥٠٥م)، الإتقان في علوم القرآن، جزءان، تحقيق محمد شريف سكر، ومصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، بيروت، ج ١ / ١٦٣ - ٢٣٢.

- زيدان، جرجي، ١٩٥٧م، تاريخ آداب اللغة العربية، ٥ أجزاء، دار الهلال، القاهرة، ج ١ / ٢٢٤ - ٢٢٩.

٢ - انظر: الرافعي، مصطفى، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، تاريخ آداب العرب، ٣ أجزاء، الطبعة الرابعة، ج ١ / ٢٧٧ - ٣٥٠.

- زيدان، جورجي، مرجع سابق، ج ١ / ٢٤٦ - ٢٤٧.

- صحيح البخاري وصحيح مسلم.

٣ - انظر: ضيف، شوقي، (دكتور)، (١٩٦٠م)، تاريخ الأدب العربي، ٥أجزاء، دار المعارف، القاهرة، ج ١ / ١٣٨ - ١٨٢.

- الرافعي، مصطفى، مرجع سابق، ج ١ / ٣٥١ - ٤١٥.

- زيدان، جورجي، مرجع سابق، ج ٢ / ١١٩ - ١٢٩.

٤ - انظر: الأصبهاني، أبو الفرج، (٢٨٤ - ٣٥٦هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، الأغاني، ٢١ جزءاً، ٧ مجلدات، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بدون تاريخ نشر، بيروت.

٥ - انظر: ابن النديم، (٣٧٧هـ-٩٨٧م)، الفهرست، دار المعرفة، بدون تاريخ نشر، بيروت.

٦ - See: Al - Abed, B. (1992) Aspects Of Arabic Islamic Architectural Discourse ,University of Delft, Netherland, pp.:15 - 18

الدولى فى الحفاظ على حياة البشر وممتلكاتهم وانجازاتهم الثقافية وحرية ممارستهم لشعائرهم الدينية، واقتبس منها ما يلى [١]:

"... ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا (تقطعوا) نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له...".

فالحفاظ على البشر من أولويات الحضارة الإسلامية ومقدم على الحفاظ على الممتلكات؛ لأن الحفاظ على الإنسان شرط للحفاظ على البنيان وعلى التنمية. وهو عمل ممأسس بمسلكيات أخلاقية ومؤطر بأحكام شرعية.

وهذا ما أكده الخليفة عمر بن الخطاب(١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) فى العهدة العمرية، وهى العهد الذى قطعه لبطريرك القدس صفرونيوس، عندما اشترط الأخير تسليم المدينة للخليفة عمر، أمام ضغط الجيش العربى الإسلامى الذى أرسله الخليفة عمر لتحريرها من البيزنطيين سنة (١٥هـ - ٦٣٦م)، والتى نصت على حماية التراث المادى واللامادى للنصارى فى مدينة القدس [٢]:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أهل إيلياء (القدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء (القدس) معهم أحد من اليهود (هذا الشرط وضع بناءً على طلب البطريرك صفرونيوس...) وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة

١ - انظر: الطبرى، محمد بن جرير (٣١٠هـ - ٩٢٢م)، تاريخ الطبرى، ١١ جزء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٧٩م، القاهرة، ج ٣ / ٢٢٦ - ٢٢٧.

٢ - انظر: المرجع السابق، ج ٣ / ٦٠٨ - ٦٠٩.

رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان. وكتب وحضر سنة خمسة عشرة (هجرية، ١٥ هـ- ٦٣٦م)".

واللافت أن جميع العهود [١] التى أبرمها قادة جيوش المسلمين الذين حرروا بلاد الشام وفلسطين والعراق من الصليبيين ومن الفرس، كانت على نفس النمط، أى تنص على حفظ التراث المادى واللامادى للسكان العرب الأصليين والبيزنطيين والفرس المحتلين.

والفاحص لتقانات حفاظ المستوى الإسلامى يجد أنه تم طبقاً لمنهجيات فى: الجمع، والنقل. ولتقانات فى: التحقيق، والتوثيق، والتدوين، شكلت جميعها بنى الحفاظ الثقافى. فجمع القرآن له بنيته الخاصة به، وجمع الحديث له بنيته الخاصة به، وكذلك جمع الشعر الجاهلى وتدوينه، لا يتسع المقام لعرضها فى هذه الدراسة، فاكتفى بالتنويه بها والإحالة المرجعية عليها.

والجدير بالملاحظة أن جمع وحفظ الظواهر الثقافية العربية الإسلامية وتدوينها قد تم إما بقرار سياسى أو استجابة لضرورة تشريعية أو اجتماعية أو ثقافية أو لفضول معرفى، ولغاية سامية وغرض نبيل، هو حفظ هذه الظواهر من الضياع أو النسيان، وإبقائها فى حيز التداول والاستعمال. فجمع القرآن الكريم تم بأمر من الخليفة أبو بكر، ثم الخليفة عمر بن الخطاب الذى حرض أبو بكر على جمعه خوفاً من الضياع [٢] لتفرق حفظته بالأمصار، ثم الخليفة عثمان بن عفان الذى جمعه لنفس السبب. وأما جمع الحديث فكان فضولاً علمياً واستجابة لضرورة تشريعية قام به أئمة مثل مالك بن

١ - انظر: المرجع السابق، ج ٣ / ٦٠٩.

٢ - انظر: المراجع فى الهامش رقم ٥.

أنس والبخارى ومسلم. وأما جمع الشعر الجاهلى فكان مطلباً علمياً [١] للاستعانة به لتفسير القرآن الكريم، ومطلباً ثقافياً وفضولاً معرفياً للوقوف على أخبار العرب فى الجاهلية.

أما الأغانى فكان جمعها مطلباً ثقافياً وترفيهياً، فقد أمر الخليفة العباسى [٢] هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩م) أشهر ثلاثة مغنين فى عصره وهم: إبراهيم الموصلى، واسماعيل بن جامع، وفليح بن العوراء، باختيار أفضل مئة صوت (أغنية) من الأغانى المتداولة. وقد قاموا بجمعها وتدوينها. ثم جاء ابو الفرج الأصبهانى الأموى (٢٨٤-٣٥٦هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، حفيد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، بتأليف كتابه الأغانى فى ٢١ جزءاً، ذكر فى مقدمته الأهداف والدوافع لتأليفه الكتاب وبين منهجه كالآتى [٣]:

"هذا كتاب ألفه على بن الحسين بن محمد القرشى الكاتب المعروف بالأصبهانى جمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغانى العربية قديمها وحديثها ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه وطريقته واشتراك إن كان بين المغنين فيه على شرح لذلك وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه ومالا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التى توصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه ولم يستوعب كل ما غنى به فى هذا الكتاب ولا أتى بجميعه، إذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرداً من الأخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر واعتمد فى هذا الباب على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذى من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ويحسن بذكره الصوت على أقصر ما أمكنه وأبعده من الحشو والتكثير بما تقل

١ - انظر: المراجع فى الهامش رقم ٧ .

٢ - انظر: الأغانى، مرجع سابق، ج١ / ٢ .

٣ - انظر: المرجع السابق، ج ١ / ٢ - ٤ .

الفائدة فيه وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ولمع تليق به وفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقل بها من فائدة إلي مثلها ومتصرفا بها من جد إلى هزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الأحداث إلى دراستها ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس بها إذا كانت منتحلة من غرر الأخبار ومنتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة...".

ويستطرد الأصبهاني في مقدمته بتوضيح منهجيته في الجمع، وبيان التقانات التي استعملها في التحقيق والتوثيق والتدوين (التسجيل) والتصنيف، عارضاً للهدف السامي والنبيل من عملية جمع الأغاني في كتابه، وهي الحفاظ على ظاهرة ثقافية تشمل الأغاني والمغنين والشعراء والألحان والملحنين. واللافت هنا أن الحفاظ على الإنجازات الفنية العربية الإسلامية كان قراراً سياسياً من الخليفة هارون الرشيد، وفضولاً معرفياً عند الأصبهاني.

واللافت أن الفضول المعرفي للأصبهاني جعله متخصصا في حفظ منجزات الحضارة الإسلامية وغير الإسلامية، المادية واللامادية. إذ أن القسم الأكبر من مؤلفاته كرسه لتوثيق هذه الإنجازات وأذكر منها: الديارات، المماليك والشعراء، أدب الغرباء، الأخبار والنوادر، أخبار الطفيليين، الخمارين والخمارات، أخبار (المغنى) جحظة.

والفضول المعرفي لعب دوراً كبيراً في حفظ الإنجازات المادية واللامادية والثقافية للحضارة الإسلامية. فالجاحظ، (١٥٠-٢٥٥هـ / ٧٦٧ - ٨٦٨م) في كتابيه: البخلاء والبيان والتبيين، حفظ الكثير الكثير، من الطرائف والنوادر والوقائع والقصص التي تصور الحياة الاجتماعية. وابن الزبير، (القرن ٥هـ / ١١م)، في كتابه الذخائر والتحف (المقتنيات الفنية)، وثق وسجل ووصف فيه الذخائر والتحف التي وجدت في قصور الخلفاء والملوك والولاة والناس، كما سجل الرسائل المتبادلة بين ملوك

العرب وملوك أوروبا والهند والصين. وكذلك الأبشيهى، (٧٩٠-٨٥٠هـ / ١٣٣٨ - ١٤٤٦م)، فى كتابه المستطرف فى كل فن مستظرف، سجل الغرائب واللطائف والنوادر والقصص والأساطير، التى تصور الموروث الشعبى فى الحضارة العربية الإسلامية. وكذلك مقامات بديع الزمان الهمدانى ومقامات الحريرى.

ومن الكتب التى تصور الموروث الشعبى التى عنيت الحضارة الإسلامية بجمعها وحفظها كتب السير مثل: سيرة عنتر بن شداد، وسيف بن ذى يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وجحا، وعلى بابا والأربعين حرامى، والسندباد البحرى، والشاطر حسن، والشعر النبطى، وشعر الزجل، وألف ليلة وليلة التى ألهبت وألهمت الخيال الغربى الأوروبى ووطنت سحر الشرق فى مدينة بغداد. والصورة المرفقة لصفحتين من مخطوطة الكتاب توضح حجمه وتبين تقانة الحبك القصصى، وأسلوب سرد الأحداث وعناصر الإثارة والتشويق فى سردها، كما تبين تقانة الكتابة والحفظ.

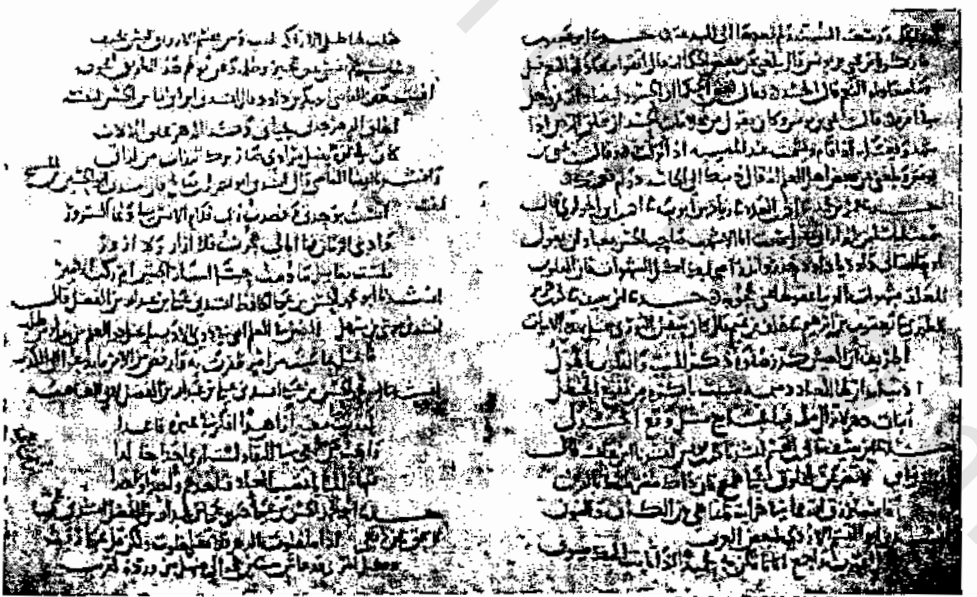

صورة لصفحتين مخطوط كتاب ألف ليلة وليلة (نقلت من الشبكة)

هذه الكتب من التراث الشعبى، وغيرها الكثير لا تتسع الدراسة لحصرها تمثل سجلات للإنجازات والتراث الإنسانى، المادى واللامادى، الذى أنتجته وعنيت الحضارة العربية الإسلامية بحفظه وجمعه وتدوينه. كما تتم روايته فى أماكن اللهو العامة كالمقاهى، حيث يقوم شخص يعرف بالحكواتى برواية، هذه القصص من السير الذاتية لعنتر بن شداد وغيره، وكان هذا النوع من اللهو فى التراث الشعبى شائعاً فى مقاهى معظم المدن العربية حتى ستينيات القرن الماضى، ولا يزال يقدم عروضه بمدينة دمشق حتى يومنا الحاضر فى مقهى النوفرة، شرقى الجامع الأموى. كما أن نوعا آخر من اللهو كان يقدم فى المقاهى يعرف بأرجوز وعيواز (كراكوز وعيواض).

واللافت أن الشعر النبطى ما زال فاعلاً فى دول الخليج العربى والأردن وسوريا، وبعض الدول العربية خصصت له برنامجاً إذاعياً وأقامت ديوانيات خاصة لشعرائه، كما يتم تسجيله على أشرطة التسجيل وتداوله بين الناس بيعاً وشراءً. أما شعر الزجل فاشتهر فى مصر وبلاد الشام، وبصفة خاصة فى لبنان وفلسطين، ففى لبنان خصص له برنامج تلفزيونى، أما فى فلسطين فما زال يستعمل فى أفراح الريف ويطلق على شعرائه لقب القويلة، ويجتمع فى الفرح شاعرين (قويلين) أو أكثر، ويتم السجال بينهما، على أنغام الشبابة أو الأرغول، مباشرة إما بالمقابلة أو المعارضة. وقد جمع ما قيل فى هذا الفن، كما يتم تدوين ما يستجد منه لأنه ما زال فاعلاً ومستخدماً.

وأكتفى بهذا القدر للتدليل على أسباب الحفاظ للمنجزات اللامادية فى المستوى الإسلامى، وهو غيض من فيض، إذ إن الحضارة الإسلامية هى الحضارة الأولى التى وثقت ودونت وسجلت إنجازاتها. فهى بكل المعايير مصدر لمفاهيم الحفاظ على التراث الإنسانى؛ لأنها ضمت وشملت ثقافة شعوب مختلفة، منتشرة فى مناطق جغرافية شاسعة، تمتد فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ووصل تأثيرها إلى أمريكا الشمالية وحاليا امتدت ثقافتها إلى كل مكان فى العالم.

وبالجملة فإن الحفاظ على الإنجازات العربية الإسلامية المادية واللامادية أخذ شكلاً مؤسسياً، بمعنى أنه كان عملاً مشتركا بين الدولة والمواطنين. وهذا الأمر يتجلى بصورة أكثر وضوحاً فى الحفاظ على الإنجازات المادية (المعمارية) للمستوى الإسلامى، الذى يعتبر بحق المصدر الأول للحفاظ المادى للإنسانية كما سأوضح فيما يلى من عرض وتحليل.

أما الإنجازات المادية (المعمارية) فقد عرضت لها فى دراسة موسعة، نشرتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو)، فى كتاب بعنوان، الحفاظ المعمارى فى الحضارة العربية الإسلامية [1]، وقد أشرت إلى هذا الكتاب فى المقدمة. وبينت فيه أن الحضارة الإسلامية هى أول حضارة فى العالم تنص وتتبنى صراحة وبوضوح تام مفاهيم الحفاظ المادى (المعمارى). وبينت أن الحفاظ مفهوم أبدى سرمدى ولد فى رحم الشريعة الإسلامية وارتبط بفلسفة تاريخها. كما بينت أن مصدر هذا المفهوم هو مؤسسة الوقف الإسلامى، وأن مشاريع الوقف هى مشاريع حفاظ مادى معمارى. وأن إدارة مشاريع الوقف هى نفسها إدارة مشاريع الحفاظ، وأن واجبها الأول هو الحفاظ على الأعيان (المبانى) الموقوفة، كما بينت أن الجهاز الإدارى لإدارة مشروع الحفاظ يشمل تعيين جهاز فنى للصيانة، ويتضمن معمار وبناء ونجار وقنواتى. كما بينت أن ميزانية مشروع الوقف هى ميزانية مشروع الحفاظ، وأن أولوية صرف ريع الوقف تخصص للحفاظ المادى على الأعيان الموقوفة. كما عرضت لتقانات الحفاظ النظرية والعملية وبينت حجم التدخل لكل تقانة عملية من التقانات السبع وهى: العمارة، والترميم، والتجديد، والإضافة، والرقع، والقلع والنصب، والهدم وإعادة البناء. ثم عرضت لأنواع السجل المعمارى ولطرق وتقانات التوثيق. وختمت الكتاب

١ – انظر: المرجع فى الهامش رقم ١ .

ببيان دور الوقف والحفاظ في التنمية، وبينت أنه لا تعارض بين التنمية والوقف والحفاظ، وأن الأخيرين هما أكبر مصدر للتنمية التعليمية والتربوية، والاجتماعية، والصحية، والصناعية والسياحية، والاقتصادية.

مما سبق يتضح أن اهتمام الحضارة الإسلامية بإنجازاتها الإنسانية ("التراثية") اللامادية والمادية والحفاظ عليها، هي الأقدم زمنياً والأعمق معرفياً، من أية حضارة أخرى. وأن مفهومها للحفاظ مفهوماً مؤسسياً عقلانياً وليس عاطفياً كما بدأ في الغرب في ثلاثينيات القرن الماضي ولم يأخذ الصفة المؤسسية إلا في ستينيات القرن الماضي أيضاً. كما أنه مصدر أساس للتنمية ينميها ويحفزها ولا يتعارض معها. وسنرى جانباً آخر لمفهوم إسهام الحضارة الإسلامية للتراث الإنساني في المستوى غير الإسلامي الذي سيكون موضوعنا التالي.

المستوى غير الإسلامي:

من المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية هي التي حفظت الإنجازات الثقافية للحضارات المنقرضة: الفرعونية، والسومرية، والأشورية، والبابلية، والعربية في اليمن. واليونانية، والهندية والرومانية، والفارسية. وقد بينت في المستوى الإسلامي أن الحفاظ على مباني عبادة الديانة المسيحية وعلى حرية ممارسة المسيحيين لدينهم تم طبقاً للآية الكريمة: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... (٢٥٦) ﴾ [1]، وبقرار سياسي من كل من الخليفة أبو بكر والخليفة عمر. فحفظا للمسيحية تراثها المادي واللامادي المتمثل بعقيدتها الدينية وبمنظومة قيمها.

وأكثر من ذلك فإن الفضول العلمي دفع المؤرخين المسلمين ليكتبوا ١٣

١ - سورة البقرة.

مؤلفاً [١] عن الأديرة النصرانية فى العراق وبلاد الشام وفلسطين والجزيرة ومصر. وأذكر منها كتاب أبو الفرج الأصبهانى الديارات ، وكتاب الشابشتى المتوفى (٣٨٨هـ -٩٨٨م) الديارات، وكتاب الشمشاطى المتوفى (٣٩٤هـ- ١٠٠٣م) الأديرة والإعمار فى البلدان والأقطار. كما تحفل كتب التاريخ والخطط والجغرافيا بفصول وأبواب عن الديارات والكنائس، أخص منها: كتاب ياقوت الحموى المتوفى (٦٢٦هـ- ١٢٢٩م) معجم البلدان،والذى سجل فى الجزء الثانى منه ١٩٠ ديراً. وكتاب المقريزى المتوفى (٨٤٥هـ- ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الذى سجل فيه كنائس القاهرة وبعض ديارات مصر. وكتاب مجير الدين العليمى الحنبلى (٩٠٠هـ- ١٤٩٤م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الذى سجل فيه ٢٠ كنيسه داخل مدينة القدس وفى محيطها.

ولقد وصف المؤلفون الديارات ومواقعها من الخارج، أما وصفها من الداخل فكان نادرا لتعذر دخولها، كما وثقوا الشعر الذى قيل فى معظم هذه الأديرة، وبعض الأحداث الاجتماعية والأعياد، وبينوا كيفية تواصل المسلمين مع محيطها البيئى، وكيف تعاملوا مع محيطها كمتنزهات، وجعلوها جزءاً من العمران الحضرى والنسيج المعمارى للمدن بعد أن كانت أماكن منعزلة عن محيطها الحضرى. وبهذا يتضح كيف حافظت الحضارة الإسلامية على التراث المسيحى المادى واللامادى. واللافت للنظر أن ياقوت الحموى أكد أن الفضول العلمى، والتوثيق هما السبب الرئيس لتأليفه لمعجمه، حيث ذكر فى مقدمة معجمه [٢]:

---

١ - ورد هذا العدد فى مقدمة كتاب الديارات التى كتبها محقق الكتاب.

- انظر: الأصبهانى، أبو الفرج، (٢٨٤-٣٥٦هـ / ٨٩٧ - ٩٦٧م)، الديارات، تحقيق جليل عطية، دار رياض الريس، لندن، ص: ٢٧-٣١ .

٢ - انظر: الحموى، ياقوت(٦٢٥هـ- ١٢٢٧م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م)، بيروت، ج ١ / ٧ - ١٥ .

"... فهذا كتاب في أسماء البلدان... والقرى والمحال... وقال وهو أصدق القائلين: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [1]، أي أنظروا إلى ديارهم كيف درست وإلى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست... لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم الصحابة والتابعين... ومشاهد للأولياء والصالحين... فألقى حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً... ورتبته على حروف المعجم... حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة... لأنني كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد...".

وهذا يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الفضول العلمي للحفاظ على الإنجازات العربية الإسلامية وتراث الآخرين كان هدفاً ومطلباً للحضارة العربية الإسلامية، حتى لو كان خرافة أو أسطورة، وبصرف النظر عن الدين والمعتقد.

وياقوت تبنى بفضوله العلمي مطلباً دينياً، وسار على نهج مماثل، نهجه الخلفاء من قبله في جمع القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر الجاهلي، في جمع وترجمة التراث الشعبي للحضارات المنقرضة، كما فعل من قبله عبد الله بن المقفع (٨٠-١٤٣هـ / ٦٩٩ - ٧٦٠م) في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية، على الرغم من اختلاف [2] الروايات في هذا الكتاب، فمنهم من ينسبه إلى أصول هندية ترجمت إلى الفارسية وترجمها ابن المقفع للعربية، ومنهم من يقول أنه من وضع ابن المقفع نفسه ونسبه لأصول فارسية.

وكذلك الأمر في جمع التراث العلمي فالخليفة العباسي هارون الرشيد

١ - سورة المائدة.

٢ - انظر: ابن المقفع، عبد الله، (٨٠-١٤٣هـ / ٦٩٩ - ٧٦٠م)، كليلة ودمنة، تحقيق مفيد قميحة، دار الشواف للطباعة والنشر، الرياض، ص: ٢١ .

(١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩ م) أنشأ بيت الحكمة، الذى طوره ابنه الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣ م) ليصبح صرحاً علمياً مميزاً، وظف فيه علماء عصره، وجمع كل ما وصلت إليه يده من إنتاج الحضارات السابقة. وبصفة خاصة اليونانية، والسنسكريتية، والهندية. وحفظ هذا الإنتاج مترجماً، ومدققاً، ومنقحاً، باللغة العربية، وبلغته الأصلية، حيث قام المسيحيون بدور مهم فى عملية الترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية. وأكثر من ذلك فإن الخليفة المأمون قد منح تفرغاً [١] علمياً للعالم اللغوى الكوفى الفراء فى بيت الحكمة، "ليجمع أصول النحو وما سمع من العرب (أى الشعر) ووكل به من يكفيه حاجته حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه إلى شئ وحتى أنهم كانوا يؤذنونه (يقيموا الآذان له) فى حجرته بأوقات الصلوات (تأمل وترحم على ملوك العلماء) (التعليق بين القوسين ( ) من وضع الرافعى) وصير له الوراقين، وألزمه الأمناء والمُنْفِقِينْ، فكان الوراقون يكتبون وهو يُمْلى حتى صنف الحدود (كتاب فى النحو)".

يتضح من بيت الحكمة دور القرار السياسى والفضول العلمى، فى جمع وحفظ التراث الإنسانى وتدوين الإنجازات العلمية والثقافية للحضارة العربية الإسلامية. كما يتضح أن بيت الحكمة كان أول وأكبر مصدر للتنمية العلمية والثقافية فى العالم.

ولقد قام ابن النديم (٣٧٧هـ - ٩٨٧م) صاحب كتاب الفهرست، بتسجيل جميع الكتب التى ترجمت من هذه الحضارات، ووثق أسماء مؤلفيها، ولخص مواضيعها. كما حوى سجلاً للتراث اللامادى شمل جميع الكتب المؤلفة فى التراث الشعبى: كالأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة ،وأخبار المسامرين والمخرفين والمصورين، وكتب الطبخ، وكتب تعبير الرؤيا أو تفسير الأحلام، وكتب النوادر، وكتب عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس، وكتب عجائب البحر، وكتب أسماء العشاق، وكتب تركيب العطور. والواقع أن كتاب ابن النديم يعتبر سجلاً للمنجزات

١ - انظر: الرافعى، مرجع سابق، ج ١ / ٤١١ .

الإسلامية المادية واللامادية أو الإنسانية، وللتراث المادى واللامادى أو الإنسانى للحضارات: اليونانية، والفارسية، والسنسكريتية، والهندية، والصينية. والحقيقة أن الدور الذى قام به ابن النديم أشبه ما يكون بدور المكتبات الوطنية ودور حفظ الوثائق فى عصرنا الحاضر. ولقد نَهَجَ نَهْجَ ابن النديم الكثير من الموثقين العرب والمسلمين. وعليه فإن عملية التوثيق والحفظ هى من إبداعات الحضارة الإسلامية.

كما قام الكثير من علماء المسلمين بدراسة هذه الحضارات وتوثيقها، أخص منهم الجغرافى والمؤرخ العربى الهمدانى المتوفى (٣٥٠هـ- ٩٦٢م) صاحب كتاب الإكليل، الذى قام بدراسة الحضارات العربية فى اليمن، ووثق انجازاتها المادية (المعمارية) واللامادية فى الجزء الثامن من كتابه.

كما قام البيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ / ٩٧٣ - ١٠٤٨م) بدراسة كل ما أنتجته الحضارة الهندية على مدى ٤٠ سنة، عاشها بين ظهرانيهم، فدرس ووثق علومهم، وفنونهم، وفلسفتهم، ولغاتهم، وديانتهم، وسلوكهم، وعاداتهم، وقيمهم، وعمرانهم فى كتابيه: الآثار الباقية من القرون الخالية، وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة. وربما تكون دراسات البيرونى، إلى جانب دورها الريادى فى التراث الإنسانى، هى أول الدراسات فى علم الإنسان (الأنثروبولجى).

كما درس الغرناطى (٤٧٣-٥٦٥هـ / ١٠٨٠ - ١١٧٠م) صاحب كتاب تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، التراث المادى للحضارة الفرعونية. وكذلك الإدريسى المتوفى (٥٦٠هـ-١١٦٥م) ألف كتابًا عن الهرم، ودرسه دراسة عميقة. والبغدادى (٥٧٥-٦٢٩هـ / ١١٦٢ - ١٢٣١م) صاحب كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، درس وسجل التراث المادى للحضارة الفرعونية.

والمقريزى (٧٦٦-٨٤٥م/ ١٣٦٤-١٤٤١م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، من أكثر الكتب التى عنيت بالحفاظ

على التراث الإنسانى للحضارة الفرعونية، والإنجازات الإنسانية للحضارة العربية الإسلامية. والكتاب فى غاية الدقة والموضوعية، وفضوله العلمى وأهدافه ومنهجيته فى التوثيق فى منتهى الوضوح، ووضعت بوعى وقصد ، كما ذكر فى مقدمة كتابه [١]:

"وكانت مصر هى مسقط رأسى... وآتانى ربى الفطانة والفهم أرغب فى معرفة أخبارها... فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب... إلا أنها ليست مرتبة على مثال... فأردت أن أخص فيها ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم، وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع وحوته من المبانى البديعة الأوضاع، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل...".

والواقع أن الحضارة الفرعونية حُضِيَتْ بالكثير من الاهتمام من قبل العلماء المسلمين، لا تتسع هذه الدراسة لحصر المؤلفات التى عنيت بدراسة وتوثيق تراثها الإنسانى (المادى واللامادى).

كما حُظِيَ التراث الإنسانى الفارسى باهتمام الحضارة الإسلامية، فوثق الشاعر البحترى (٢٨٦هـ- ٨٩٩م) إيوان كسرى بمدينة المدائن (سلمان باك حالياً)، فى قصيدته السينية، فكانت سجلاً معمارياً وفنياً بكل المعايير، وسأعرض لمقتطفات منها [٢]:

١ - انظر: المقريزى، أحمد (٧٦٦-٨٤٥هـ- ١٣٦٤-١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، جزءان، دار صادر، بدون تاريخ نشر، بيروت، ج ١ / ٢ - ٥ .

٢ - انظر: البحترى، الوليد(٢٨٦هـ-٨٩٩م)، ديوان البحترى، جزءان، شرح وتعليق د. محمد التونجى، دار الكتاب العربى (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م) بيروت،ج ٢ / ٦٣١ - ٦٣٦ .

حضرت رحلى الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسى
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
تصف العين أنهم جد أحيا ءٍ لهم بينهم إشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس
وكأن الأيوان من عجب الصنعة جوبٌ فى جنب أرعن جلس
مشمخر تعلو له شرفات رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
فهو يبدى تجلداً وعليه كلكلٌ من كلاكل الدهر مرسى
ليس يدرى أصنع إنس لجنٍ سكنوه أم صنع جنٍ لإنس
غير أنى أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس
ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى

وأنهى بكتاب عجائب الهند (القرن ٣هـ-١٠م) لبرزك بن شهريار الناخداه الرامهرمزى الذى حوى الكثير من التراث الشعبى الهندى، والكتاب من منشورات بريل بليدن فى هولندا سنة ١٨٨٦م.

وبالجملة فإنه لا يكاد يخلو مصدر من المصادر التاريخية والجغرافية من ذكر وتوثيق للمنجزات الثقافية لهذه الحضارات وبصفة خاصة الإنجازات المعمارية.

وختاماً فقد بينت أن الجهد العلمى المميز الذى بذلته الحضارة العربية الإسلامية فى الحفاظ على إنجازاتها المادية واللامادية والتراث الإنسانى غير الإسلامى، لم يكن ترفاً معرفياً، بل واجب دينى ومتطلب حضارى وفضولاً علمياً، فرضته الشريعة الإسلامية على إنتاجها العلمى والثقافى وعلى إنتاج غيرها من الحضارات السابقة والمعاصرة لها. فالحفاظ على التراث الإنسانى ولد فى رحم الشريعة الإسلامية وارتبط بفلسفة تاريخها، وقد تم طبقاً لمنهجيات فى الجمع وتقانات فى التحقيق والتوثيق والتدوين والتصنيف. عرضت لمصادرها، وبينت بعض منها وأحلت القارئ إلى بعض مظانها. وبينت أن الحضارة العربية الإسلامية هى أقدم وأكبر وأغنى مصدر للتراث الإنسانى، والأعمق معرفياً فى العالم. وهذا يرتب على أبنائها الإلمام بإنجازاتها وتسويق إبداعاتها فى مجال الحفاظ الإنسانى. كما يرتب على منظمة اليونسكو أن تستمر وتوظف جهد الحضارة الإسلامية فى هذا المجال.

خاتمة

خصصت هذه الدراسة للمنجزات والتراث الإنسانى فى الحضارة العربية الإسلامية، فعرضت لتصنيف منظمة اليونسكو للمنتجات الثقافية العالمية إلى: آثار وتراث. ثم عرضت لتصنيفها التراث إلى: مادى، ولامادى، وإنسانى. وبينت أن الأخير يجمع بين الأول والثانى، كما بينت أن ميثاق منظمة اليونسكو نص على أن التراث الإنسانى ملك للبشرية جمعاء، وأن واجب الحفاظ عليه لا يقع على كاهل الثقافة التى أنتجته فحسب، بل أممى (أى دولى ممثل بالمنظمة) فى نفس الوقت. ثم صنفت التراث زمنيا إلى: قديم وحديث.

ثم عرفت الدراسة التراث الإنسانى، وبينت أن تصنيف اليونسكو أغفل خصوصية الحضارة الإسلامية، لأنها حضارة قائمة منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، ولأن إنجازاتها الثقافية المادية واللامادية مرتبطة بفلسفة تاريخها، فاعلة، وتؤدى وظائفها، موثقة ومدونة، ولأن الحفاظ عليها واجب شرعى كما هو الحال فى مؤسسة الوقف التى تنص على أن استعمال الإنجازات الثقافية يجب أن يكون أبدياً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. ثم بينت الدراسة أن ما جرى عليه التقادم من إنجازاتها بفعل التطور موثق ومدون ومحفوظ متحفياً، فهو منجز ثقافى لهذه الأسباب، ويمكن تسمية هذا الجزء، تجاوزاً، بالتراث.

وأوصت الدراسة أن على الدول العربية والإسلامية التحفظ على تصنيف الإنجازات الإسلامية إل آثار وتراث كالتالى: لما كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة قائمة، منتشرة فى المكان ومستمرة فى الزمان، فإن جميع إنجازاتها المادية (المعمارية) هى مبانٍ صالحة للاستعمال أو إعادة التأهيل، وأن ما جاء فى ميثاق اليونسكو والمواثيق الدولية والهيئات الغربية من تصنيف زمنى للإنجازات المادية: كآثار وتراث، تصنيف لا يعنى الحضارة العربية الإسلامية، ولا يرتب عليها أى التزام أدبى أو معنوى أو قانونى.

ثم عرضت الدراسة لدور الحضارة الإسلامية الريادى فى توثيق وتسجيل وحفظ الإنجازات والتراث الإنسانى ضمن مستويين : إسلامى وغير إسلامى. وبينت أن المستوى الأول خاص بإنجازاتها الثقافية، كتدوين القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلى، وجمع منتجها الثقافى الفنى كالأغانى، والموروث الشعبى كالسير والعجائب والغرائب والمسامرة واللهو. وبينت الدراسة أن الحضارة الإسلامية هى أكبر مصدر للتراث الإنسانى وذلك لانتشارها الجغرافى ولتنوعها الثقافى بسبب كثرة الشعوب التى اعتنقت الإسلام. كما بينت الدراسة الدور المؤسسى الذى تبنته الحضارة الإسلامية فى توثيق وحفظ التراث الإنسانى للديانة المسيحية ولغيرها ممثلاً بوصية أبو بكر وبالعهدة العمرية التى تشكل أول ميثاق عالمى للحفاظ على الموروث الإنسانى.

ثم عرضت الدراسة للمستوى غير الإسلامى وبينت مرة أخرى الدور الريادى للحضارة الإسلامية فى جمع وحفظ وترجمة المنتج العلمى والثقافى للحضارات المنقرضة بصورة مؤسسية واستشهدت ببيت الحكمة الذى أسسه هارون الرشيد بمدينة بغداد، والذى فعله ابنه المأمون الذى جمع التراث اليونانى والسنسكريتى والهندى ووظف المترجمين لترجمته للعربية، فحفظت كل هذه الإنجازات للإنسانية. كما بينت الدراسة دور بيت الحكمة فى التنمية العلمية والثقافية.

ثم بينت الدراسة دور الفضول العلمى عند العلماء المسلمين فى حفظ تراث الحضارات المنقرضة كالفرعونية (المصرية القديمة) الثقافية والعلمية، وعرضت لبعض الدراسات التى عنيت بها. كما عرضت لدور البيرونى فى توثيق وحفظ تراث الحضارة الهندية. كما عرضت الدراسة أيضاً لسينية البحترى فى توثيق إيوان كسرى بمدينة المدائن، ولترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية للعربية.

ونوهت الدراسة بالجهد العلمى المميز للحضارة الإسلامية فى الحفاظ على

الإنجازات المادية واللامادية الإسلامية وغير الإسلامية، وبينت أنه لم يكن فضولاً معرفياً من العلماء المسلمين فحسب، بل متطلب حضاري وواجب ديني، فرضته الشريعة الإسلامية على إنتاجها الثقافي وعلى إنتاج غيرها من الحضارات السابقة والمعاصرة لها. وأوصت الدراسة بأن على اليونسكو أن تستمر بل أن تتبنى التجربة الإسلامية في الحفاظ على إنجازاتها الثقافية وتراث الآخرين؛ لأنها أكبر وأقدم وأغنى مصدر للتراث الإنساني.

obeikandl.com